الشعر العربي بين التقيد والتحرر

الآداب تستفتي

يرى بعض الشعراء ونقاد الشعر المحدثين ان قوالب الوزن والقافية العربية تحول دون استجابة الشعر العربي لحاجات الحياة المعاصرة وينزعون الى وجوب تحريره من هذه القوالب ، فما موقفكم من هذه النزعة وما مقترحاتكم في الموضوع .

جواب الأستاذ رئيف خوري

ليس ثمة ريب في ان تقيد الشعر العربي القديم ، على الأعم الأغلب، بالوزن الواحد والقافية الواحدة (وهو الشكل المعروف بالقصيدة) قد ضيق عليه المضمار وخنق المجال فكان سبباً من الاسباب التي من اجلها ألزم شعرنا القديم حد الفن الغنائي، واذا تعداه او كاد يتعداه الى غيره من الفنون كالقصة والملحمة (ودعك من المسرحية) فانما يفرغ ذلك في إطار الفن الغنائي.

ولا جدال في ان للوزن الواحد والقافية الواحدة ميزتها في الشعر، فانهما يسبغان على النظم موسيقية تستهوي وتخلب برغم ما يتطرق اليها في احيان كثيرة من الرتابة والجري على الوتيرة الواحدة . ولكن هل يحتاج الى برهان ان هذا التقيد بالقافية الواحدة والوزن الواحد يقصر شوط الكلام ، واذا لم يرزحه تحت الثقل فانه يفقده تلك المرانة التي لا بد منها للدقة والاسترسال في الوصف ، والطبعية في الحوار ، والتنوع والتوسع في تحليل العواطف ومناقشة الافكار ، والخروج من شكل الى آخر في النظم، وكل ذلك ضروري لكي يستطيع الشعر استجابة لحاجات الحياة المعاصرة او لأية حياة يريد ان يستجيب لها ببسطوحها واعماقها .

ومن هنا كان على حق اولئك الشعراء والنقاد المحدثون الذين ينزعون الى وجوب تحرير الشعر العربي من قالب الوزن الواحد والقافية الواحدة .

والحق ان محاولتهم هذه ليست بالاولى في بابها . وإلا فما عسى ان يكون الهدف الذي يرمي اليه قديماً بعض وشاحي الاندلس ان لم يكن فكاً للشعر من عقال الوزن الواحد والقافية الواحدة ؟ قال مثلا ابو بكر بن زهير في مطلع موشحته المشهورة يحن الى الوطن :

ما الهوله ... من سكره لا يفيق
يا له سكران ... من غير خمر
ما للكئيب المشوق ... يندب الأوطان !

فان الوزن هنا يجري عند التدقيق على النظام الآتي :

مستفعلان ... مستفعلن فاعلان
فاعل مفعول ... مستفعلان
مستفعلن فاعلان ... فاعلن مفعول

وظاهر انه ليس بوزن من الاوزان التقليدية المعروفة ، سواء اكانت تامة ام مجزوءة ، وانما هو وزن اخترعه الوشاح اختراعاً واعتمد فيه بالدرجة الاولى على الغاية المنشودة من الوزن اي : الجرس الموسيقى . وفي الوقت نفسه لم يرتبط الوشاح ذلك الارتباط التقليدي ، بالقافية الواحدة ، وانما تصرف بالقوافي تصرفاً فيه الكثير من الحرية ولكن مع حفظ موسيقية النظم.

واليوم يبدو لنا اننا نستطيع ان نفيد كثيراً من تجارب بعض الوشاحين القدماء في محاولة تحرير الشعر العربي من الاوزان التقليدية والقوافي الواحدة. ولكن لا بد لبيان ذلك من التفاتة الى الاساس الذي بنيت عليه الاوزان العربية وهو ما يصحب اللفظ من حركات وسكنات ... لقد ألف علماء العروض القدامى من هذه الحركات والسكنات صوراً سموها تفاعيل ، وجعلوا عددها ثماني ، وهي : فعولن ، فاعلن ، (وهاتان خماسيتان لاننا اذا احصينا الحركات والسكنات في كل منهما وجدناها خمساً)، مفاعلن، مفاعلتن ، فاعلاتن ، مستفعلن، متفاعلن، مفعولات (وهذه سباعية لأن الحركات والسكنات في كل منها سبع).

ومن صور هذه التفاعيل ركبوا اوزان الشعر اي : بحوره . وجعلوا سبيل ذلك ان يختاروا تفعيلة واحدة فيكرروها مراراً معينة ويختاروا تفعيلتين مختلفتين فيكرروهما مراراً على ترتيب خاص ، حتى يكتمل البحر، فهذا البحر (الكامل) مثلاً ، ألفوه من تفعيلة سباعية واحدة : « متفاعلن » يكررونها ثلاثاً في الصدر وثلاثاً في العجز. وهذا البحر (الطويل) ألفوه من تفعيلتين مختلفتين : « فعولن ، مفاعيلن » يكررونها بهذا الترتيب مرتين في الصدر ومرتين في العجز . ويلحظ ان عدد التفاعيل في الصدر يتساوى في الاصل دائماً مع عددها في الشطر الآخر .

فما الذي ترى صنعه بعض الوشاحين القدماء حين خرجوا على هذه القوالب التقليدية ؟ لقد عدلوا قبل كل شيء عن التقيد بالقافية الواحدة . ثم انهم لم يحصروا التفاعيل في سبع ، ولم يلزموا انفسهم ان يجعلوا تفاعيل الصدر مطابقة لتفاعيل العجز كل المطابقة ، وانما اباحوا لانفسهم ان ينوعوا صور التفاعيل ما شاؤوا التنويع، وان يتفننوا ما اطاقوا التفنن في ترتيب الشطور الشعرية، لا يرجعون في ذلك الى ضابط الا الحس الموسيقي ، على النحو الذي لمسنا في مطلع موشحة ابن زهير ، وهذا ما نستطيع نحن ان نصنعه في محاولتنا تحرير الشعر العربي من القوالب التقليدية ، بل هذا ما عمد اليه كثير من شعرائنا المحدثين وكانوا موفقين .

ولكن يلحظ مع ذلك ان الوشاحين كانوا يتقيدون بالنمط الذي يختطونه لموشحهم فيجرون عليه في الموشح كله. وهكذا اذا عدنا الى موشحة ابي بكر ابن زهير رأيناه يتبع في باقي ادوار الموشحة صور التفاعيل التي اثبتها في المطلع او اللازمة ، ورأيناه يتبع كذلك ترتيبها لا يحيد عنه ، ثم يتبع نسقاً واحداً لترتيب القوافي لا يتبدل .

فما الذي يمنعنا نحن ان نخطو خطوة اخرى تجاوز الموشحات في تحرير الشعر العربي ، فنبيح للشاعر ان يتفنت حتى من قيد النمط الواحد الذي كان يرسمه الوشاح ثم يأخذ به نفسه في موشحه كله ؟ وبعبارة اخرى ، لماذا هذا التقيد بصور تفاعيل معينة ، ثم بترتيب معين لتلك التفاعيل ، وبنسق واحد لترتيب القوافي ؟ لماذا لا نطلق للشاعر حريته ان يرسل كلامه وقوافيه إرسالاً شرط ان يكون كل جزء موزونا على وزن ما ، وشرط ان تأتلف من هذه الاوزان المتعددة والقوافي المتنوعة تلك الموسيقية التي لا بد منها في الشعر والتي لا عماد لها بالنتيجة إلا موهبة الشاعر. والذي يخيل لي ان ابا العلاء المعري قد حاول شيئا من ذلك في كتابه « الفصول والغايات » متأثراً بالقرآن الكريم ، على انه ، اي ابا العلاء، قد اسرف في التقيد بالقوافي وتزجيتها

على حرف واحد . قال مثلاً :

ما فعل ابنا قيلة (١) وبنو بقيلة
والرائحة والغازبة وكسرى والمرازبة ؟
جر الزمن عليهم ذيلا واجرت الخطوب في ديارهم سيلا
وعاد النهار فيهم ليلا وركبوا للمنايا خيلا !

فهذا شعر كالشعر وان لم يكن جارياً على وزن من الاوزان العربية التقليدية.

وعلى ذكر القرآن الكريم الذي تأثره ابو العلاء في فصوله وغاياته ، ارى ان الشعر العربي الحديث يستطيع في سعيه الى التحرر من موروث القوالب العروضية ان يفيد من قوالب القرآن فائدة جلى . واليك مثلاً :

ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعا !

ومثلاً آخر :

والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى .

فان هذه الآيات الكريمة وان لم تكن قريضا فهي منظومة النظم الذي اصبح يعرف فيما بعد بالنظم القرآني .

وخلاصة القول ان تحرير الشعر العربي من قوالبه التقليدية لا يمكن ان يخضع لقاعدة ثابتة الا العدول عن القافية الواحدة والخروج على التفاعيل القديمة والاوزان النقليدية التي تركبت من تلك التفاعيل . اما فيما وراء ذلك فيجب ان تكون لكل شاعر اوزانه الخاصة شرط ان يتحد نظمه بتلك الموسيقية التي لا تستقيم الا بها شعرية الشعر .

وليؤذن لي في الختام ان اثبت على سبيل المثال مقطوعة من نظمي صغتها على الطريقة التي اقترحتها لتحرير الشعر العربي من قوالبه الموروثة. وعنوان هذه المقطوعة : انتحار جدول :

شق الجبل جدول
وسال في الوادي طلاب ابعاد
رق غناء ولذ لحناً فلم يجد من أعار اذناً
صفا فلم ينعكس جبين ولا تراءت به عيون
طاب ولا ثغر استقى واغدقا
ولا تراب اخصبا او اعشبا
لاحوم الطير عليه ولا هفا ظمي اليه
... عاد الى نفسه تمتم من يأسه :
سدى جئت سدى عشت
وفي الثرى غلغل وانتحر الجدول !

جواب الاستاذ بدوي الجبل

ان الشعر العربي في قوالب الوزن والقافية يتسع لكل ما يتفق مع رسالته من حاجات الحياة المعاصرة . والعربية واسعة خصبة فالفقر ليس فيها والوزن والقافية نغم وجمال وعذوبة . لا قيود وحدود .

اما الشعراء ونقاد الشعر الذين يرون تحرير الشعر العربي من قوالب الوزن والقافية . ففي وسعهم ان يفعلوا ذلك . وسنقرأ حينئذ فنا رفيعا وسيما قد يكون حكمة وقد يكون فلسفة وقد يكون كل شيء ولكنه — وهذا غير مهم — لن يكون شعراً عربياً على كل حال .

اما اقتراحاتي في هذا الموضوع فتتلخص في اقتراح واحد . هو ان ينظم هؤلاء السادة شعرهم العربي المحرر من الوزن والقافية بلغة غير اللغة العربية . ونحن بهذا الاقتراح المتواضع المتسامح نريد ان ننفي عنا تهمة العصبية للقديم ومحاولة فرضه على الناس .

(١) هما قبيلتا الاوس والخزرج .

جواب الدكتور عبد القادر القط

إن تحرر الشعر العربي الحديث من قيد القافية الموحدة قد تم منذ زمن طويل ، وهو الآن حقيقة واقعة لا سبيل الى المراء فيها . ولم يكن خروج الشعراء على القافية الموحدة مجرد رغبة في التجديد او الظهور بمظهر العصرية ، وانما كان احساساً منهم بانها عقبة في سبيل التحرر والصدق وإخراج العمل الفني وحدة متسقة متكاملة الاجزاء. فالقافية الواحدة كالقفل تغلق البيت دون ما يليه من ابيات وتحمله وحدة منقطعة عن سائر القصيدة . كما ان ما فيها من رتابة يفقد الشعر كثيراً من جمال التنوع والمفارقة . وهي كثيراً ما تلزم الشاعر — واعياً او غير واع — ان يعدل فكرته او يتنازل عن بعض جوانبها لتستقيم له نهاية البيت . ومهما يكن الشاعر بارعاً في اللغة فلن يستطيع العثور دائماً على الكلمة الحية الموحية التي توافق قافيته . وهو لذلك يضطر الى استخدام كثير من الالفاظ الجامدة التي لا حياة ولا إيحاء فيها .

اما القافية المتغيرة فقد خلقت للقصيدة وحدة جديدة غير وحدة البيت هي المقطوعة . والمقطوعة بما لها من سعة تتيح للشاعر مجالاً اكبر للتعبير عن جوانب احساسه او فكرته . فضلاً عن ان هذه الوحدة لم تعد مستقلة بذاتها بل هي شديدة الصلة بما يسبقها وما يليها ، وبذلك تخرج القصيدة بناء متماسك الاطراف لا جزئيات منتثرة لا ارتباط بينها كما كانت من قبل . هذا ، والمقطوعات ذات القوافي المتعددة تعطي لكل جانب من جوانب الاحساس او الصورة ما يناسبها من موسيقى وتضفي على القصيدة من الحركة والحيوية ما يجعلها اقدر على التصوير والاثارة .

اما الوزن فقد تغير بمقدار ما استدعاه تغير القافية . فحين لم يعد البيت وحدة القصيدة لم تعد هناك ضرورة لتقسيم التفعيلات تقسيما منتظما بين شطريه واصبح الشعراء في حل من ان يستخدموا اي عدد من هذه التفعيلات كما يقتضي نظام قصائدهم. ولعل إحساس الشعراء بكثرة الاوزان العربية وتنوع موسيقاها لم يدفعهم الى تجديد بعيد في هذا الباب .

هذا رأيي من حيث التجديد في حدود الابقاء على الوزن والقافية . على ان هناك محاولات جدية يقوم بها بعض الشعراء لنبذ القافية نبذاً تاما . وليس ذلك بمستحيل على الشاعر المجيد الذي يعبر عن تجربته بصدق واخلاص، وليس الشعر العربي بدعا في هذا وامامنا امثلة كثيرة من الشعر المرسل في الادب الاوروبي . اما الوزن فأرى ألا غنى للشعر عنه ، فهو ليس حداً شكليا فحسب . ولكنه اتساق للالفاظ في نظام موسيقي خاص يمنحها قدرة على الايحاء والتصوير لا تكون لها اذا فقدته . حقا ان بعض النثر قد تكون فيه روح الشعر ولكنه مع ذلك يظل نثراً اذا لم ينقله الوزن الى عالم الشعر .

جواب الاستاذ بشاره الخوري

ان الاوزان المعروفة مع الروي الواحد في القصيدة الواحدة هي ارثنا العزيز عن اولئك الشعراء الافذاذ الذين اودعوه اسرار الجمال على انواعه، فاذا نحن حرصنا عليه فانما نحرص على كنز ثمين لا نريد ان تتنكر له الناشئة العربية اليوم وغداً .

على ان الشعراء المحدثين حتى الموسومين (بالمحافظة) قد تصرفوا بالاوزان وانعتقوا من الروي الواحد في مجموع القصيدة فاتوا بالجميل الخالد .

ان الجمال لا يحتكر لا وزنا ولا قافية والاصح العكس .

جواب الاستاذ نزار قباني

كنت من اول القائلين بوجوب التحرر من القافية ... هذه « العبودية الملحنة » ... التي تقول للبيت العربي ... قف ... فيقف وتقطع خيوط الخيال العربي في روعة قفزته ... فيقع منقطع الانفاس ...

أما الآن فقد جئت اعترف بفشلي ، لانني ايقنت ان التحرر من القافية العربية مغامرة ... مغامرة قد تودي بطابع القصيدة العربية وتقضي على إرثانها ...

التحرر من القافية ... كالتحرر من غرائزنا يحتاج الى اجيال ... فلنقبل هذه العبودية الملحنة ... كما نقبل ان نعقد رباط العنق في رقابنا ... ونجعل الخواتم في اصابعنا ... عبودية جميلة من جملة هذه العبوديات الجميلة ...

سر استعصاء القافية علينا ... ودلالها ... انها مرتبطة بسر الغم ... ولما كان الغم هو سر القصيدة ... فلك ان تتصور اية مغامرة مجنونة يقدم عليها من يحاول فك وتر العود عن العود ... لن يبقى من القصيدة العربية حينئذ سوى وعاء من الخشب الاجوف ... كل نافخ فيه يستطيع ان يحدث صوتاً ...

هل هذه رجعيه مني ؟ . ربما كان الامر كذلك ... ولكن طبيعتي الشعرية وطبيعة اي فرد عربي، لا تستطيع ان تفترض وجود بيت لا ينتهي بقافية ... اي لا ينتهي بهذا القرار الرخيم الذي ينزل على اضلاعنا ... كما تنزل ريشة العواد على اضلاع العود ...

لفتة واحدة ما الى الشعر المنثور ترينا ان هذا اللون من التعبير – رغم غناه بالغم – لم يستطع ان يتجاوب مع الذوق العربي ... لماذا ؟ ... الجواب عند القافية ...

على انه اذا استحال الاستغناء عن القافية ... فلا يستحيل ترويضها وجعلها اكثر مرونة واستجابة لافكارنا ... وجموح خيالاتنا ... وواقع عصرنا ... فاستعمال القوافي المتعددة في القصيدة الواحدة على طريقة الموشحات ، اوفصل البيوت المنتهية بقواف معينة بأبيات اخرى تنتهي بقواف مختلفة عن الاولى على نحو ما نرى في شعر بعض الشعراء المحدثين ، وما رأيناه في شعر بعض شعراء المهجر . كل هذا يدل على ان تطويع القافية ممكن ... وسهل ... ولكنني اشترط له الجرأة ... والاصالة معاً ...

اما اوزاننا ... فهي طريفة ، وملونة ، وذات هدير موسيقي متعدد الجوانب مما لا نراه في الشعر الغربي الذي يعتمد على الوحدة الصوتية المعادة ... بالاضافة الى ان استعمال مجزوء البحور ... والتصرف بتفاعيلها زيادة او نقصاناً ... يرفدنا بثروة جديدة من الانغام .

وبعد ... فانني لا اقف في وجه اي (خليل) جديد ... يتحفنا ببحور اخرى ... وانغام رائعة مبتكرة ... ولكنني لم اعثر على هذا « الخليل » بعد ... وكل ما في الامر ان احد الادباء حاول النظم على بحر جديد ... ابتدعه .. فجاءت القصيدة ... والبحر جميعاً «نشازاً» بحيث ترحمنا على تراب الخليل ...

ان مشكلة الشعر العربي ليست مشكلة اشكال ... وأوزان ... وانما هي مشكلة وجدان ... وجدان فني يهيب بنا ان نتدفق من داخلنا .. ونسفح زيت ذاتنا ... اما الكتابة بحبر الآخرين ... والبكاء بدموعهم ... والغناء بشفاههم ... فأسوأ ما ابتلي به الشعر العربي في هذه الايام ...

جواب الآنسة فدوى طوقان

اني مع القائلين بوجوب تحرير الشعر من قوالب الاوزان والقوافي ، والشعر المعاصر في مختلف البلاد العربية ، قد تحرر اكثره من هذه القوالب ونجح في اثبات وجوده .

ان التمرد على البيت المستطيل المتساوي التفاعيل في الصدر والعجز ، يفسح للشاعر آفاقا ارحب للتعبير الصادق . فان حشر الخلجات والمعاني في خط محدود من التفاعيل لا تحيد عنه ، كثيراً ما يرغم الشاعر على اخضاع هذه الخلجات والمعاني لعبودية الوزن الرتيب في ابيات القصيدة، وإزاء هذه العبودية لا يمكن للشاعر ان يعبر باخلاص كما كان يريد ، فلا بد من حشو اونقصان.

البقية على الصفحة ٧٤ –

موعدنا غداً ...

•

إن زمزمت ريح العدوّ ، فكسّرت أغصاننا ومشت على هاماتنا ، أو نثّرت اشلاءنا ، وانهار حلمُ الأرض ، محتضراً ، ومات إزاءنا ، إن أجهش الطفل الشريد ، وجاع ، حتى لا رغيف وتناثرت بيضُ الزنابق ، تحت أقدام الحريف فقلوبنا الحرّى تغني : إن موعدنا غدا .

★

إن قطّبت سحَنُ الليالي ، واستشاط بُغاتُها وترنّح الانسان ، والتفتْ عليه طغاتها ، وتغلّقت كل الكوى ، وتقطعت نسماتها ... إن هبّ إعصار العدوّ ، على ثرى وطني اللهيف ان طأطأت عنق العبيد ، وجلجل السوط النحيف فقلوبنا الحرّى تغني : إن موعدنا غدا .

★

إن عربدوا – لم ينثنوا – فجراحنا ، ما تنثني . نار الدخيل ، ستنطفي . ويشبُّ قلب المؤمن . لا تبكِ – يا طفلُ – الحياةَ . لك الحياة ، فأمعن كن للحياة ، فلن يموت ربيعك النضْرُ الوريف كن للحياة جناحها ، أبداً على الدنيا يطيف فقلوبنا الحرّى ، تغني : ان موعدنا غدا .

★

الأفق أزرق ، ما يزال يعلّنا من زُرقته الصبح منهلُّ الندى ، مستغرقٌ في فوحته الأم ، الاطفال .. كل ينتشي من نبعته . لا ، لن تشق طريقنا ، سكينُ مغتصب عنيف أبداً نصفّق للحياة ، وفي جوانحنا رفيف . وقلوبنا الحرّى تغني : إن موعدنا غدا .

حمص — نصوح فاخوري